

التحرير والتنوير

وكان لأهل سبأ سد عظيم قرب بلاد مأرب (ومأرب من كور اليمن) وكان أعظم السداد في بدلا اليمن التي كانت فيها سداد كثيرة متفرقة وكانوا جعلوا هذه السداد لخزن الماء الذي تأتي به السيول في وقت نزول الأمطار في الصيف والخريف فكانوا يعمدون إلى ممرات السيول من بين الجبال فيبنون في ممر الماء سورا من صخور يبنونها بناء محكما يصبون في الشقوق التي بين الصخور القار حتى تلتئم فينحبس الماء الذي يسقط هنالك حتى إذا امتلأ الخزان جعلوا بجانبه جوابي عظيمة يصب فيها الماء يفيض من أعلى السد فيقيمون من ذلك ما يستطيعون من توفير الماء المختزن .

وكان سد مأرب الذي يحفظ فيه (سيل العرم) شرع في بنائه سبأ أول ملوك هذه الأمة ولم يتمه فأتته ابنه حمير . وأما ما يقال من أن بلقيس بنته فذلك اشتباه إذ لعل بلقيس بنت حوله خزانة أخرى فرعيه أو رمت ببناءه ترميما أطلق عليه اسم البناء فقد كانوا يتعهدون تلك السداد بالإصلاح والترميم كل سنة حتى تبقى تجاه قوة السيول الساقطة فيها . وكانوا يجعلون للسد منافذ مغلقة يزيلون عنها السكر إذ أرادوا إرسال الماء إلى الجهات المتفرقة التي تسقى منه إذ جعلوا جناهم حول السد مجتمعة . وكان يصب في سد مأرب سبعون واديا .

وجعلوا هذا السد بين جبلين يعرف كلاهما بالبلق فهما البلق الأيمن والبلق الأيسر . وأعظم الأودية التي كانت تصب فيه اسمه (إذنه) فقالوا : أن الأودية كانت تأتي إلى سبأ من الشجر وأودية اليمن . وهذا السد حائط طوله من الشق إلى الغرب ثمانمائة ذراعا وارتفاعه بضع عشرة ذراعا وعرضه مائة وخمسون ذراعا .

وقد شاهد الحسن الهمداني ووصفه في كتابه المسمى بالإكليل وهو من أهل أوائل القرن الرابع بما سمعت حاصلة . ووصفه الرحالة (أرنو) الفرنسي سنة 1883 والرحالة " غلازر " الفرنسي .

ولا يعرف وقت انهدام هذا السد ولا أسباب ذلك . والظاهر إن سبب انهدامه اشتغال ملوكهم بحروب داخلية بينهم ألتهتم عن تفقد ترميمه حتى تخرّب أو يكون قد خربه بعض من حاربهم من أعدائهم وأما ما يذكر في القصص من أن السد خربته الجرذان فذلك من الخرافات . وفي العرم قال النابغة الجعدي :

من سبأ الحاضرين مأرب إذ ... يبنون من دون سيله العرما E A والتبديل : تعويض شيء بآخر

وهو يتعدى إلى المأخوذ بنفسه وإلى المبدول بالباء وهي باء العوض كما تقدم في قوله تعالى (ولا تبدلوا الخبيث بالطيب) في سورة النساء .
فالمعنى : أعطيناهم أشجار خمت وأثل وسدر عوض عن جنتيهم أي صارت بلادهم شعراء قاحلة ليس فيها إلا شجر العضاة والبادية وفيما بين هذين الحالين أحوال عظيمة انتابتهم فقاسوا العطش وفقدان الثمار حتى اضطروا إلى مفارقة تلك الديار فلما كانت هذه النهاية دالة على تلك الأحوال طوي ذكر ما قبلها واقتصر على (وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمت) إلى آخره .

وإطلاق اسم الجنتين على هذه المنابت مشاكلة للتهكم كقول عمرو بن كلثوم :
قريناكم فجعلنا قراكم ... قبيل الصبح مرادة طحونا وقوله تعالى (فبشرهم بعذاب أليم) .
وقد وصف الأعشى هذه الحالة بدءا ونهاية بقوله :
وفي ذاك للمؤنسي عبرة ... ومأرب عفى عليه العرم .
رخام بنته لهم حمير ... إذا جاء مورده لم يرم .
فأروى الزروع وأغنى بها ... على سعة ماؤهم إذا قسم .
فعاشوا بذلك في غبطة ... فحاربهم جارف منهزم .
فطار القيول وقيلاتها ... ببهاء فيها سراب يطم .
فطاروا سراعا وما يقدرון ... منه لشرب صبي فطم والخمت : شجر الأراك . ويطلق الخمت على الشيء المر . والأثل : شجر عظيم من شجر العظام يشبه الطرفاء . والسدر : شجر من العضاة أيضا له شوك يشبه شجر العناب . وكلها تنبت في الفيافي .
والسدر : أكثرها ضلا وأنفعها لأنه يغسل بورقه مع الماء فينظف وفيه رائحة حسنة ولذلك وصف هنا بالقليل لإفادة أن معظم شجرهم لا فائدة منه وزيد تقييله قلة يذكر كلمة (شيء) المؤذنة في ذاته بالقلة يقال شيء من كذا إذا كان قليلا .
وفي القرآن (وما أغنى عنكم من الله شيئا)